جوانب من النشاط الزراعي بالمغرب الأقصى على عهد بني مرين

د. بن مصطفى دريس
أستاذ محاضر، جامعة سعيدة،
driss.benmostefa@yahoo.com

ملخص:

يتناول البحث بالدراسة جانبا مهما من النشاط البشري ببلاد المغرب الاقصى في العصر الوسيط، أو خلال عهد بني مرين، والذي يعد من الركائز الاساسية التي يبنى عليها اقتصاد الدول قديما وحديثا، إنه القطاع الزراعي، لقد تعرضنا فيه لأهم الامكانيات والعوامل الطبيعية من موقع جغرافي ومناخ وتضاريس بما فيها الأراضي الزراعية والشبكة الهيدروغرافية من أودية وأنهار وبحيرات والتي اشتهر بها هذا القطر دون سائر بلاد المغرب وحتى يومنا هذا، ثم عرضنا أهم المحاصيل الزراعية النباتية والحيوانية التي يجود بها، ثم اهم المشاكل التي اعترضت هذا القطاع، وأنهيناه بخاتمة تضمنت بعض النتائج المستخلصة من البحث.

الكلمات المفتاحية: الزراعي؛ المغرب الأقصى؛ المريني؛ النشاط.

مقدمة:

تعتبر الزراعة من أهم الانشطة التي مارسها الانسان منذ القدم، وشكلت عاملا مهما من عوامل استقراره بعد أن عاش متنقلا مزاولا حرفة الصيد و الالتقاط فيما عرف بالشيوعية البدائية، ومازالت تشكل أهم مصدر من مصادر غذاء الإنسان، وهي اليوم تشكل أهم الركائز والأعمدة التي يبنى عليها اقتصاد الكثير من الدول، فبها يستكمل استقلالها أيضا إن هي استطاعت أن تحقق اكتفاءها وأمنها الغذائي، كما لعبت دورا استراتيجيا في مصير بعض الدول، وتبين ذلك من خلال عمليات الحصار التي تعرضت لها بعض الدول عبر التاريخ، فكان صمودها بقدر ما تمتلكه من مخزون غذاء، و منها من خرجت من ذلك بتجارب وقناعات بينت قيمتها و ضرورة الاهتمام بها، ومن بين الدول التي طبقت سياسة الحصار دولة بني مرين على جارتها الزيانية لمدة ثمان سنوات حتى قضى من أهلها خلق كثير بعد أن استنفذوا ما لديهم من غذاء، وبالمقابل فقد امتلك المغرب الأقصى الامكانيات الاساسية المتنوعة لقيام زراعة حقيقية.

فإلى أي مدى استطاع أهل المنطقة استغلال تلك الامكانيات؟ وما مظاهر وانعكاسات ذلك على اقتصاد البلد ونشاط سكانه ؟.

1-عوامل وإمكانات الزراعة بالمغرب الاقصى :

أ-الطبيعية: تميزت بلاد المغرب الأقصى منذ العصر الوسيط بالتنوع الطبيعي والجغرافي، الأمر الذي ساعد على تنشيط الزراعة من جهة وتنوع محاصيلها من جهة أخرى، فهي تتكون مرفولوجيا من جملة من المظاهر التضاريسية، أهمها السهول المنخفضة التي تقع على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط(بحر الزقاق) والمحيط الأطلسي (بحر الظلمات) والتي امتازت في مجملها بالخصب الشديد، إذ أشار المراكشي في كتابه المعجب إلى ذلك بقوله ((وهي أخصب رقعة على الأرض فيما علمت، وأكثرها أنهارا مطردة وأشجارا ملتفة وزرعا وأعنابا))[1].

ومن المناطق التي اشتهرت بخصبها منطقة فاس، اذ يصفها لنا الحميري فيقول: ((ومدينة فاس كثيرة الخصب والرجاء، وكثيرة البساتين والمزدرعات والفواكه وجميع الثمار، ولها أنضار واسعة متصلة العمائر، وعدوة القرويين من هذه المدينة أكثر بساتين وأشجارا ومياها وعيونا))[2] .

[1]. المراكشي (أبي محمد عبد الواحد بن علي)،المعجب في تلخيص أخبار المغرب،ط1 ، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 1426هـ/2006م،ص444،انظر أيضا لسان الدين بن الخطيب،خطرة الطيف (رحلات في المغرب والأندلس)1374-1362، تقديم وتحقيق أحمد مختار العبادي ط1، ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،2003م. ص100 وما يليها.

[2]. الحميري (عبد المنعم السبتي)، الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس،ط2، ،مكتبة لبنان،بيروت1994م،ص435

وهناك الكثير من المناطق التي اشتهرت بخصبها الكبير أيضا، مثل مكناسة الزيتون، وتطوان التي تقع في سهل فسيح وجميل تكتنفه الحدائق بكل أنواع الغروس، ومنطقة الريف التي امتازت بخصبها وصلاحيتها لزراعة الزيتون والحدائق والفواكه الطيبة وغيرها.

كما ندرك ذلك من خلال إفادات الرحالة الذين أشادوا بتلك الأراضي[1]، كما هو الحال بريف مدينوتيت الفسيح الذي تجود فيه زراعة القمح، وأراضي منطقة القصر الكبير التي كانت تنتج حسب الوزان ثلاثين ضعف ما يزرع بها، وكذا ناحية الهبط [2] العجيبة بسبب خصوبتها ووفرة إنتاجها، والتي كانت في الماضي حسب الوزان أكثر نبلا وشهرة[(3)]، اضافة الى اقليم تامسنا -من مملكة فاس- الذي هو كله أرض خصبة كانت في القديم زهرة بلاد البربر كلها حسب مارمول، وهي ملائمة للحبوب وتربية المواشي[4]، ناهيك عن أنفا أو أنفاي[5] التي يحيط بها البحر من جهة والسهول الخصبة الكبرى حيث ترعى القطعان العديدة ، وبسيط مدينة الرباط الذي تشقه جداول المياه العذبة وتسقي جميع بساتينها ولها نظر كبير كثير الزرع والفواكه وجميع الخيرات [6] .

أمّا المظهر الثاني فهو الجبال التي تنقسم إلى سلسلتين رئيسيتين: الأولى ساحلية بجوار ساحل بحر الزقاق[(7)] وتعرف باسم الريف، وهي تشكل قوسا ينفتح على هذا البحر والتي يعتقد أنها جزء من جبال سيبرا نيفادا الاسبانية قبل أن يفصل بينهما مضيق جبل طارق أو ما يعرف بأعمدة هرقل أو المجاز المعروف بالزقاق حيث سعة البحر هناك اثنا عشر ميلا [8]، وأخرى داخلية وتعرف بجبال الاطلس او الاطلس الداخلي والتي تنقسم بدورها الى ثلاثة أقسام: الأطلس الصغير والمتوسط والكبير ،[(9)] وتشتمل على فصلين، ستة أشهر للشتاء من أكتوبر إلى أبريل، وستة أشهر للصيف من أبريل إلى شتنبر ،غير أنك تجد الثلج دائما طوال السنة في أعلى قمم الجبال[(9)].

---

[1]. لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، صص100-101.

[2]. هي المنطقة التي تبتدئ جنوبا عند نهر ورغه لتنتهي شمالا على المحيط وتتاخم غربا مستنقعات أزغار وشرقا الجبال المشرفة على أعمدة هرقل ويبلغ عرضها نحو ثمانين ميلا وطولها نحو مائة ميل،الوزان (الحسن بن محمد)، وصف إفريقيا،ج2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، ص306.

[3]. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص306-305.

[4]. مارمول كربخال، إفريقيا،ج2، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون ،دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع ،الرباط المغرب1408-1409هـ/1988-1989م،ج2،ص ص126-127.

[5]. هي الدار البيضاء حاليا ةقد ذكرها الوزان في كتابه أما الكلمة حاليا فتطلق على مقاطعة غرب المدينة والتي تشمل أقدم حي بها.

[6]. مارمول كربخال،المصدر السابق،ج2،ص ص126

[7]. هو الداخل من البحر المحيط الذي عليه سبتة الذي يضيق من المشرق إلى المغرب حتى يكون عرضه ثلاثة أميال وهو بساحل الأندلس الغربي بمكان يقال له الخضراء ما بين طنجة من أرض المغرب وبين الأندلس، ثم يتسع الزقاق كلما امتد حتى يصير إلى مالا ذرع له ولا نهاية، وهو مخرج بحر الروم المتصاعد إلى الشام، انظر الحميري، المصدر السابق، ص294.

[8].الحميدي (ابي عبد الله)،جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد،دار الغرب الإسلامي تونس ،2008،ص39.

[9]. الوزان ،المصدر السابق،ج2، ص81.

ومن تلك الجبال، جبل سمد الذي يحتوي على ينابيع كثيرة، ويظل به الثلج طيلة أيام السنة، وكذا جبل سكسيوة العالي شديد البرودة الذي لا يختفي الثلج عنه أبدا، وجبل هنتاتة العالي جدا الذي لم ير الوزان له مثيلا في علوّه، فعندما رآه لأول مرة خاله سحابة وهو جبل طوبقال- أي الأقرع بالبربرية -ويبلغ ارتفاعه 4165 م، وتظل ذروته مستورة بالثلج على الدوام[1]، ومن ثم فان بلاد المغرب الأقصى تحتوي على الكثير من الكتل الجبلية المرتفعة التي مثلت خزانا لا ينضب ويغذي أنهارا دائمة الجريان[2]، وجعلت منه بلدا غنيا بالمياه والمجاري .

ومن تلك الأنهار نجد نهر أم الربيع، وهو نهر كبير جدا، ينبع من الأطلس بين جبال عالية في حدود تادلا وفاس، ويجري عبر سهول أدخسان (سهل خنيفرة حاليا)، ويجتاز سهولا بين ناحية دكالة وناحية تامسنا إلى أن يصب في المحيط قرب سور مدينة أزمور، ولا يمكن قطعه خوضا في الشتاء والربيع[(3)].

أما نهر أبي رقراق فينبع من أحد الجبال المتفرعة عن الأطلس ليصب في المحيط الأطلسي، ويعتبر مصبه ميناء لمدينتي الرباط وسلا والذي كان يعسر على السفن دخوله إلا بوجود دليل محنك، وهذا ما حفظ لهما حريتهما من التحرشات المسيحية حسب الوزان[4].

وبإقليم فاس يجري نهر سبو الذي يمتاز بمجراه الطويل ومياهه الغزيرة، وعندما يصب في البحر يكون مصبه في غاية العرض والعمق بحيث يمكن للسفن العظيمة أن تدخله كما فعل البرتغاليون والإسبانيون ذلك مرارا[5]، ويصفه الحميري بأنه نهر عظيم من اعظم أنهار بلاد المغرب، منبعه من جبل بني وارتين ورأس العين في شعراء[6].

وعلى بعد أو مسافة ستة أميال من مراكش[(7)] يمر نهر التانسيفت، وهو نهر كبير غزير المياه يخترق إقليم دكالة ليصب في المحيط قرب آسفي بعد أن ترفده العديد من الأودية الصغيرة[8]، ويقول عنه الحميري بأنه يقع على ثلاثة أميال من مراكش، وهو ليس بالنهر الكبير لكنه دائم الجريان، وإذا كان زمن الشتاء يفيض بسيل كبير لا يبقي ولا يذر[9]، وهناك نهر آخر ينبع من جبال الأطلس، إنه نهر سوس الذي يفيض كثيرا في فصل الشتاء أيضا حتى أنه يحمل كمية كبيرة من التربة الصالحة للفلاحة[(10)]، ويقطع

---

[1]. نفسه، ج2، ص141 وما يليها.

[2]. انظر، لسان لدين بن الخطيب، المصدر السابق ، ص101 ومايليها.

[3]. الوزان، المصدر السابق، ج2، ص247.

[4]. نفسه، ج2، ص247-248.

[5]. نفسه، ج2، ص249.

[6].الحميري عبد المنعم،المصدر السابق،ص435.

[7]. الوزان، المصدر السابق، ج2، ص138.

[8]. مارمول كربخال،المصدر السابق، ج2، ص33.

[9]. الحميري، المصدر السابق، ص127.

[10]. الوزان، المصدر السابق، ج2، ص254.

على الناس المرور الى ضفته الأخرى، ويسقي أكثر البلاد خصبا وسكانا في تلك المناطق، ويتخذ منه السكان جداول يسقون بها حقول قصب السكر[1].

أما نهر بهت و بهيت فينبعان من الأطلس الكبير -بمملكة فاس- ويسيلان نحو الشمال لينتشرا في أحد سهول إقليم أزغار ويتحولان إلى مستنقعات وبحيرات يصطاد فيها عدد لا يحصى من السمك كالبيوض والانقليس والشابل المدهشة[2].

وفي مرتبة أقل من حيث قوة الصبيب والأهمية نجد نهر لكوس الذي ينبع من جبال غمارة ويجري نحو الغرب عبر سهول الهبط وأزغار، ثم يتابع سيره إلى أن يصب في المحيط قرب مدينة العرائش[(3)]، اضافة الى نهر زيز الذي ينبع هو الآخر من الأطلس ويدخل في بلاد مدينة سجلماسة مارا بين أراضيها الزراعية [4].

وهناك جملة من الأودية الأخرى التي تقل أهمية عن التي ذكرنا، تطرق لها الوزان وكربخال كوادي العبيد ووادي تيساوين ووادي أملالو التي تنبع أيضا من جبال الأطلس الكبير[5].

إن مناخ المغرب الأقصى كان ملائما جدا لفلاحة الأرض واستنباتها، بما تشهده المنطقة من تساقط كما أسلفنا الذكر، ومجموع الرياح التي كانت تساعد في تلقيح واكتمال نمو المحاصيل، ففي شهر مارس كانت تهب رياح قوية من الغرب والشمال فتخصب الأرض وتزهر الأشجار، وفي شهر أبريل تكاد جميع الفواكه تبتدئ في أخذ شكلها[6]، فهي تمتاز بتنوع مناخي يجمع بين السّاحلي الذي يشتهر بوفرة التساقط، والقاري أو الجبلي الذي من سماته التفاوت الكبير في درجات الحرارة بين الليل والنهار وبين الشتاء والصيف، وخاصة على الارتفاعات التي تتجاوز ارتفاع الالف متر، ومن مناطقه فاس مكناس وبني ملال، اضافة الى المناخ الصحراوي الذي يسود المناطق الجنوبية، أما المناخ بشكل عام فامتاز بالتذبذب الكبير، فقد عرفت المنطقة سنوات تهاطلت فيها الامطار بشكل طوفاني حتى أفسدت الزرع والمساكن، وفي سنوات أخرى عرفت الجفاف والقحط الكبير حتى أدت الى حدوث مجاعات خطيرة كما سنرى لاحقا .

---

[1]. مارمول، المصدر السابق، ج2،ص33.

[2]. نفسه،ج2،ص35، انظر أيضا الوزان، المصدر السابق، ج2، ص248.

[3]. الوزان، المصدر السابق، ج2، ص249.

[4]. نفسه، ج2، ص254.

[5]. مارمول، المصدر السابق، ج2،ص34.

[6]. الوزان،المصدر السابق،ج2، ص78.

ب- البشـــرية

كان سكان المغرب الاقصى من أكثر الناس تعلقا بالأرض، إذ وعلى أيام الوزان كان هناك بعض الفلاحين الذين بلغوا الثمانين أو جاوزوها لا يزالون يحرثون الأرض وينقشون الكرم ويقومون بسائر الأعمال التي يحتاجون إليها بخفة عجيبة وخاصة إذا تعلق الأمر بالجبليين[1].

وتواجد حينها عدد من الفلاحين العرب وغيرهم في غاية الأمية، لكنهم رغم ذلك يحسنون الكلام بإسهاب في الفلك، ويستنتجون منه استنتاجات متناهية في الدقة، وهي عندهم ضرورية أتت من اللاتينية وترجمت منها إلى العربية، ويوجد كتاب ضخم في ثلاثة أجزاء يسمى "كنز الفلاحة" ترجم من اللاتينية إلى العربية في قرطبة أيام المنصور ملك الأندلس ويتعرض هذا الكتاب لجميع المسائل الضرورية للفلاحة كالفصول وطرق الزرع والغرس وتلقيح الأشجار وتغيير كل ثمر أو حب أو خضرة بواسطة الفلاحة.....))[2]

لكن بالمقابل نجد بعض سكان المغرب جاهلين بقواعد الزراعة كسكان حاحا التي هي إحدى أقاليم مملكة مراكش رغم صلاحية جزء هام من أراضيها لزراعة الفاكهة وتربية المواشي ((ماعز حمير وغنم))[3].

اهتم المرينيون بالزراعة والفلاحة وتوسيع المساحة الزراعية، خاصة على عهد السلطان أبي عنان فارس، فوزعوا الأراضي على الفلاحين وبنوا النواعير[4]، ومنها الناعورة الكبرى على وادي فاس التي باشرت عملها في صفر 686/ مارس 1287[5]، كما أمر بإنشاء السواقي بغرض تنظيم ري الأراضي الزراعية ومد الفلاحين بالمياه الكافية لري أراضيهم ومن ثم رفع غلتها، وكانت على هذا الأساس مصادر السقاية في بلاد المغرب هي الأمطار والعيون والآبار والأنهار والصهاريج[6].

وحتى خلال القرن 8هـ/ 14م اهتمّ أهل فاس ونواحيها بتنظيم الري في وادي فاس -وادي الزيتون- حيث أقيمت عليه سدود لتنظيم مياه الري والتحكم فيها، كما قاموا بين الحين والآخر بتطهير مجرى النهر من الرواسب المتراكمة فيه، وكانت تتفرع من هذا الوادي قنوات تروي البساتين الواقعة

---

[1]. الوزان، المصدر السابق، ج2، ص82.

[2]. نفسه، ج2، ص80.

[3]. نفسه، ج2، صص95-96.

[4]. الناعورة والناعور، آلة لرفع الماء من الأنهار تتكون من دولاب كبير وقواديس مركبة على دائرة وجمعها نواعير، انظر لسان الدين بن الخطيب، خطرة الطيف، هامش482، ص108.

[5]. السلاوي(أبو العباس أحمد بن خالد الناصري)، الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، ط1، ج3، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب1997 م، ص89.

[6]. كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية مصر1996م، ص57.

على ضفتي النهر[1]، هذا إضافة إلى اهتمامهم ببناء الخزانات والصهاريج كتلك التي تواجدت بمنطقة أزجن[2].

كما انتهج بعض ملوك الدولة المرينية سياسة ضريبية معتدلة تجاه الفلاحين، على غرار السلطان أبي الحسن الذي قام بإصلاح جبائي وألغى جميع الضرائب غير الشرعية عن الفلاحين وعين لجبايتها موظفين موثوق بهم[3] ووزع أراضي زراعية مقدار حرث زوجين لكل فرد مع اعفاء الأرض الممنوحة من اللوازم الجبائية[4].

ولا يجب أن نغفل عامل الأمن والاستقرار الذي شهدته الدولة المرينية في بعض مراحلها وخاصة على عهد أبي عنان فارس المريني[5] الأمر الذي ساعد بشكل كبير في ازدهارها وانتعاشها خاصة زراعة الفواكه.

2-الانتاج الزراعي:

قبل أن نخوض في هذه الجزئية نود اعطاء نظرة ولو وجيزة عن أنواع الأراضي التي يمكن أن نصنفها انطلاقا من درجة خصوبتها وموقعها وطريقة استغلالها الى : أراضي الدولة، والتي كانت تلقى اهتماما مباشرا من سلاطين المملكة، فوفروا لها كل مستلزمات العناية من مياه سقي وغيرها، ومن أمثلة ذلك نجد بستان المصارة، وهو بستان جليل ضم صنوف الأشجار والغراس على اختلافها ، وبه قصر جليل جميل بمحاذاة وادي فاس، والتي استحدثت سنة 1286/685، وبستان ابن خيدن الذي يشقه النهر ذاته، وبستان البحيرة وغيرها[6].

كما نجد أراضي الوقف التي انتشرت في أرجاء البلاد، وكباقي البلاد الاسلامية يمكن أن نقسمها الى قسمين: خاصة وعامة، وقد تربعت على مساحات شاسعة، وهي متفاوتة من حيث المساحة من منطقة لأخرى ومن ملكية لأخرى، وهي تمثل جزءا مما يعرف أيضا بالأحباس أو الحبوس، ونعني بها الاملاك الموقوفة لوجه الله، أي أن مردودها يذهب لصالح المدارس القرآنية أو المساجد والزوايا والتكايا فيما بعد.

---

[1]. انظر الونشريسي(أحمد بن علي)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب، ج5، تحقيق مجموعة من الأساتذة،دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان،1981م، صص20-21-27-28.

[2]. أزجن مدينة بالمغرب تبعد عن فاس بنحو سبعين ميلا وقد بناها قديما الرومان على جبل يبعد عن وادي ورغه بنحو عشرة أميال، انظر الوزان، المصدر السابق،ج2، ص306.

[3].عبد القادر بوتشيش، تطور الفلاحة في مكناس من عصر المرابطين الى أواخر العصر المريني، مجلة المناهل، عدد 38، دار المناهل للطباعة والنشر،الرباط 1989،ص219.

[4]. محمد المنوني، ورقات من حضارة المرينيين، ط3،مطبعة النجاح الجديدة، الرباط 2000،ص148.

[5]. امتدت فترة حكم أبي عنان المريني 729-759هـ/1328م /1358م ، وهي فترة الاستقرار والازدهار واكتمال نضج دولة بني مرين وبلوغها القمة التي تم فيها انجاز أهم الآثار والمشاريع الكبرى.

[6]. ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار في ممالك الامصار، ج3، دار الكتب العلمية،لبنان2010، ص91.

أما أراضي الملكية الخاصة فهي التي تحصل عليها أصحابها عن طريق الارث أو الشراء والبيع، أو نتيجة لعملية اقطاع من طرف الدولة.

عموما يمكن حصر المحصول الزراعي بالمغرب الاقصى فيما يلي:

أ-الانتاج النباتي: كانت بلاد المغرب الأقصى على قدر خصبها كثيرة الفواكه والمزارع والمسارح[1] فقد اشتهرت مدينة فاس بإنتاج أنواع كثيرة من الهلالج المسمى بغرب الأندلس بالعبقر ويسمونه البرقوق، ولا يكاد يوجد مثله في غيرها من البلاد كثرة وطيبا وغضارة[2] أما الكروم فتواجدت في مناطق عديدة من المغرب، فمنها ما كان معروشا بالمنازل ومنها ما كان بالحقول يستفيد منه أهل تلك المناطق بعد بيعه إما طازجا أو بعد تجفيفه على شكل زبيب، ومن تلك المناطق جبل بني زرويل وجبل بني جبارة الشديد الارتفاع[3].

أما كروم العنب الأسود فتواجدت ببني بوشيبت وجبل بني منصور وجبل ايشتوم وجبل بني وليد، ومنه ما كان يصنع منه زبيب جميل غليظ شديد الحلاوة وكذلك الدبس، وكميات هامة منه كانت تصرف لصناعة الخمور[4]، وبالمقابل فقد اشتهر قصر كتامة بإنتاج التفاح الذي ترتاح الى شميمه الأرواح[5]، أما الزيتون فتواجد أيضا بالمناطق الجبلية إلى جانب الكروم كجبل بني زرويل وجبل بني وليد وجبل ايشتوم وبن يونيش[6] إضافة إلى مكناس التي اشتهرت بتسمية مكناسة الزيتون لكثرته بها، وكذلك بمنطقة صفرو التي لم تكن بها سوى غابات الزيتون[7].

بالنسبة للمحاصيل الصناعية فتواجد القطن وبكثرة بمنطقة الهبط وبسلا التي كانت معدنا له الى جانب الكتان[8]، وقصب السكر الذي كان ينبت بكثرة بتييوت، غير أنه سكر أسود لجهل سكان المنطقة بطريقة طبخه وتصفيته[9]، وبالعكس من ذلك تماما فان بلاد السوس الأقصى كانت تنتج قصبه بشكل كبير، وكان يحمل منها إلى جميع البلاد، وقد قال فيه الإدريسي: ((وقصب السكر الذي ليس على قرار الأرض مثله طولا وعرضا وحلاوة وكثرة ماء، ويعمل ببلاد السوس من السكر المنسوب إليها ما يعم أكثر الأرض))[10]، وفي الحقيقة أن أشد ما اشتهرت به بلاد المغرب الأقصى في

---

[1]. لسان الدين ابن الخطيب، خطرة الطيف، ص100

[2]. المكناسي،(أبي عبد الله محمد)، روض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، الرباط -المغرب 1371هـ-1952م، ص3.

[3]. الوزان ،المصدر السابق،ج2، ص131-132.

[4]. نفسه، ج2، ص 130-131-133 .

[5]. لسان الدين ابن الخطيب، المصدر السابق، ص100.

[6]. الوزان، المصدر السابق،ج2، ص133-134-135.

[7]. نفسه،ج2،ص362.

[8]. لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ص101.

[9]. الوزان، المصدر السابق، ج2، ص115.

[10]. الإدريسي(أبي عبد الله محمد)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد الأول، مجموعة من المحققين، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد- مصر- دت، ص228.

العصور الوسطى هو السكر، الذي امتاز بنصاعته ونكهته الطيبة وشهرته في البلاطات الأوروبية دون سواه من أنواع السكر في شتى أنحاء العالم[1].

أما الحبوب فقد تواجدت بمناطق عديدة من المغرب منها تيوت (مدينة في سوس) وهي تنتج كمية عظيمة من القمح والشعير[2] بالبصرة المغربية[3] التي تواجدت بها سهول خصبة فكانت حقولها تجود بكميات هامة من القمح[4]، وكذا بأصيلا[5] التي تنتج الكثير منها، كما تواجد بالمزة -الحسيمة حاليا- التي تحتوي على ساحل كبير عرضه نحو عشرة أميال وطوله ثمانية وعشرون ميلا، يحصد أهله كميات كبيرة منه -القمح- يبلغ نصيب أمير بادس منها زهاء خمسة آلاف مكيال[6].

ب-الإنتاج الحيواني: انتشرت حرفة الرعي في جل مناطق بلاد المغرب الأقصى، ويعود السبب في ذلك إلى عاملين هامين وهما: وفرة المراعي الطبيعية وخاصة بالمناطق الجبلية، وكذلك محدودية الأنشطة الاقتصادية آنذاك.

ومن المناطق التي انتشرت فيها هذه الحرفة جبل مطغرة ، وأصيلا وقصر كتامة التي كانت عنصر بُرّ وحليب ومرعى سائمة ومسرح بهيمة في الجميم[7]، فكان أهل تلك المناطق يملكون الكثير من الماشية وخاصة الماعز[8]، وكذا جبل بني ورطناج -تسول-الذي يبعد عن تازة أيضا بحوالي ثلاثين ميلا والذي احتوى جميع أنواع البهائم[9]، وجبل سليلكو بنفس الإقليم الذي كان يشتهر بوفرة الغنم والماعز، وجبل بني يازغة الذي امتازت ماشيته بصوفها شديد النعومة والتي كانت تصنع منه نساء المنطقة أقمشة كأنها من حرير، واشتهرت منطقة جبل بني مراسن وجبل زيز من إقليم تازا بتربية الخيل والحمير التي يتوالد عنها كثير من البغال، وأهلها رحّل لا يعرفون الاستقرار فرضت عليهم ظروف الحياة الإقامة داخل أكواخ من قصب[10].

---

[1]. عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب-من أقدم العصور إلى اليوم-، المجلد2، دط،1408 هـ/1988م، ص11.

[2]. الوزان، المصدر السابق،ج2،ص 115.

[3]. مدينة أسسها محمد بن إدريس باني مدينة فاس تبعد عن مدينة فاس 80 ميلا و20ميلا جنوبي القصر وسميت بهذا الاسم تذكيرا ببصرة العراق التي قتل فيها علي رابع الخلفاء الراشدين وجد إدريس الأعلى وما تزال أطلالها باقية، انظر الوزان، المصدر السابق، ج2، ص310.

[4]. الوزان، المصدر السابق،ج2،ص310.-312، 130ص320.

[5]. أصيلا، بلد بالقرب من طنجة، ويقال فيه أزيلة بالزاي، وهي مدينة كبيرة عامرة آهلة كثيرة الخير والخصب، ولها مرسى مقصود، وهي أول مدن العدوة من جانب الغرب ويحيط بها البحر من غربها وجوفها، ويقال بأن تفسيرها -أصيلا- هو جيدة، انظر الحميري، المصدر السابق، ص42. انظر أيضا لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، هامش 462، ص100.

[6]. الوزان، المصدر السابق، ج2، ص328.

[7]. لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق ، ص100

[8]. الوزان، المصدر السابق، ج2، ص365.

[9]. نفسه، ج2، ص357-358.

[10]. نفسه،ج2، ص360-361-368-369.

ومنطقة جبل فازار المشهورة التي تسكنها أمم كثيرة من البربر، يكسبون البقر والغنم والخيل وخيل هذا الجبل من اعتق الخيول لصبرها وخدمنها وهي مدورة القدود حسنة الخلق والأخلاق، كما تحتوي المنطقة أنواع النباتات من العقاقير التي تصرف في العلاجات الرفيعة وفيه خشب الأرز العتيق الغالي[1].

وفي قرية -انكال- بالقرب من وادي أم الربيع التي تتميز بحسن موضعها وكثرة زروعها فكانت بذلك موطنا للمواشي والإبل والبقر والغنم، وبفحصها الطويل انحشرت طيور النعام التي لا تعد ولا تحصى وأصبحت صيدا لأهل المنطقة الذين يطاردونها بالخيل، أما بيضها فيحمل الى كثير من البلاد[2].

كما انتشرت بجبال إقليم حاحا من الأطلس تربية الحيوانات بشتى أنواعها مثل جبل اداو عاقل المتاخم للمحيط والفاصل بين حاحا وإقليم السوس، وبجبل دمنسرة بالأطلس بنواحي مراكش، وجبل كبدانة[3].

واشتهرت الكثير من المناطق بإنتاج عسل النحل وخاصة في أحواز المدن والمناطق الجبلية، لكن أهم منطقة اشتهرت به هي مليلية الى جانب الشمع حتى أنهاأخذت اسمها منه، لكن انتاجهما تراجع على عهد كربخال،اضافة الى مناطق جبل كبدانة التي اشتهرت بوفرته[4].

أما حرفة الصيد البحري فقد انتشرت في عدة مناطق من بلاد المغرب الأقصى، خاصة إذا ما علمنا أن هذا البلد يطل على مسطحين مائيين (المتوسط والأطلسي) إضافة إلى كثرة أنهاره وغزارة مياهها، ناهيك عن البحيرات المتواجدة في أنحاء عديدة منها فاحتوت تلك المناطق حوتا كثيرا[5]، فاق حاجات السكان فعم حتى المداشر النائية والخيم[6]، وكان يزاول بها نوعان من الصيد، نهري يتم في المياه العذبة، وبحري على طول السواحل المتوسطية والأطلسية، ومن تلك المناطق التي اشتهرت بذلك نجد ترغة التي كان سكانها يصطادون السمك ويبيعونه مملحا للتجار القادمين من نواحي المغرب، ومدينة أزمور[7] التي لم يكن ينقطع عنها التجار الأجانب بشكل عام[8]، ويأتيها التجار البرتغاليون مرة في السنة ليشتروا كمية عظيمة من سمك الشابل أو ما كان يسمى- الحوت الطيب، ومن سلا كان ينقل هذا النوع من السمك الذي يكون في اختلاط الماء المالح بالحلو، ويحمل منه هناك إلى الأقطار[9].

---

[1]. مارمول كربخال، المصدر السابق،ج2، ص435

[2]. الحميري عبد المنعم،المصدر السابق، ص35.

[3]. يمتد من عساسة إلى نهر ملوية شرقا ومن المتوسط إلى صحراء كرط جنوبا.

[4]. مارمول كربحال، المصدر السابق،ج2، ص258.-265.

[5]. لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ص100.

[6]. نفسه، ص102

[7]. من مدن دكالة على مصب نهر أم الربيع في البحر المحيط.

[8]. الوزان، المصدر السابق، ج2، ص157

[9]. نفسه، ج2، ص326.

إضافة الى وادي سبو الذي يتصيد فيه الشابل الكثير ويدخل في ذلك الوادي الحوت الكثير[1] ، أما أسماك السردين فكانت تصطاد خاصة من منطقة بادس لأنها كانت تمثل مصدر قوت لأهلها، ولأن أرضهم قليلة القمح والمردود الفلاحي بشكل عام[2].

3-مشاكل الزراعة بالمغرب الاقصى:

إن توافر الشروط الجيدة للزراعة بالمغرب طبيعيا وبشريا لم يحل دون وجود بعض الآفات على غرار باقي الامصار وشكلت جزءا أو مظهرا من مظاهر المناخ بها، والتي كانت تضر بهذا القطاع، كتلك الرياح التي كانت تهب من الشرق والجنوب الشرقي والجنوب فكانت بالغة الضرر بالمحاصيل لا سيما في شهر ماي وجوان، لأنها تفسد جميع الغلات وتمنع الفواكه من النمو والنضج، إضافة إلى الضباب الذي كان يضر بالحبوب كثيرا لا سيما إذا وقع في وقت الإزهار لأنه يستمر أحيانا النهار كله[3].

وفي سنة687 هـ/1284م، توالى هبوب ريح شرقية واستمر معها القحط الشديد إلى آخر عام 690هـ/1287م، ولم ينزل مطر إلى شهر أبريل من هذه السنة، فحرث الناس عند ذلك وحصدوا ما حرثوه من زرع عن أربعين يوما[4]، أو تلك الرياح الشديدة التي هبت في سادس عشر من ذي القعدة من سنة 722هـ/1322م ((على مدينة مكناسة وفاس والرباط وتازة وأحوازها، واستمر هبوبها يومين بليلتيهما هدمت خلالهما الديار وقلعت الأشجار ومنعت الأسفار وأقعرت من زيتون مكناسة وزيتون المقرمدة شيئا كثيرا))، وفي نفس السنة أي 722هـ/ 1322م حدثت المجاعة بسبب ما كان من القحط، لدرجة استسقى الناس فيها، وارتفعت الأسعار وبدأت المجاعة، واستمرت لسنوات بلغت ذروتها في 724هـ/1324م التي بلغ فيها الغلاء أقصى درجاته والمجاعة أشدها بالمغرب الأقصى عامة[5].

لم يكن الجفاف هو المشكل الوحيد المعيق للزراعة في بلاد المغرب الأقصى بل شكلت الأمطار أيضا عائقا من معوقات نموها، كما حدث في سنة 723هـ/1323م إذ تساقطت أمطار غزيرة وثلوج كثيرة، تعطل معها نمو المحاصيل وتقطعت السبل بالفلاحين فلم يستطيعوا الذهاب إلى بساتينهم((عدم فيها البياض[6] والحطب، فبيع البياض بمدينة فاس بدرهمين للرطل))[7].

وهناك بعض الكوارث الطبيعية التي أتت على الحرث والنسل معا ومنها البَرَد الكبير العظيم الجرم الذي أصاب مدينة فاس في الثالث عشر من رمضان من نفس السنة وكان مصحوبا بوابل

---

[1]. مارمول كربخال، المصدر السابق،ج2،ص435

[2]. الوزان،المصدر السابق، ج2، ص326.

[3]. نفسه،ج2، ص81.

[4]. ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة ،الرباط1972، ص408.

[5]. نفسه، ص412-413.

[6]. الفحم، وذلك من باب تسمية الشيء بضده، ولا يزال هذا الإطلاق شائعا لدى العامة وخاصة في الأرياف.

[7]. ابن أبي زرع ،المصدر السابق،ص412.

من المطر، فأحدث سيولا جارفة حملت الناس والدواب والمواشي والبقر والغنم والخيل والإبل والدواوير وبشر كثير، وأتلف جميع ما بالمنطقة -زالغ[1]- من الكروم والزيتون والشجر[2].

كما أتى سيل جارف على مدينة فاس لم تعهده من قبل، وكان ذلك ليلا فهدم السور وحمل الشباك وخرب الجنات واقتلع الأشجار العظيمة وهدم القناطر والديار وخرّب جزاء بن برقوق ودور الرصيف وبعض دور برزخ[3] وسوق الصباغين وسوق الرصيف وهدم القنطرة الكبيرة التي عليها سوق باب السلسلة وهدم سور الرميلة وهلك فيه ما لا يقل عن سبعمائة وثلاثين نفسا ومن الديار ألف دار ومائة دار ومن المساجد خمسة ومن الأرحاء ثمانية بيوت ومن الأفران اثنين ومن الحوانيت أربعة وستون حانوتا، وعلى غرار ما كان يحدث بالمغرب الأدنى والأوسط فقد تعرضت بلاد المغرب الأقصى لهجمات وزحف الجراد ففي سنة 679هـ/1276م أكل جميع زروع المغرب فلم يترك بها مخضرا، فحدثت المجاعة ووصل القمح في تلك السنة عشرة دراهم للصاع[4].

خاتمة:

من خلال مراحل البحث نكتشف أن المغرب الأقصى امتلك مقومات الزراعة القوية، كما أكد ذلك الكثير من المؤرخين والجغرافيين، فالموقع الجغرافي وشساعة الاراضي الزراعية واهتمام السلاطين بهذا القطاع إضافة الى طبيعة سكانه المتعلقين بالأرض التي مثلت لهم مصدر رزق ودخل جعل منه قطاعا ناجحا وحيويا في نفس الوقت، ومن مظاهر ذلك تنوع المحاصيل ووفرتها لدرجة أن بعضها كان يصدر إلى دول الضفة الشمالية للمتوسط، أو جنوبا نحو الصحراء، وأثّر ذلك كثيرا في سياسته ودبلوماسيته وخاصة منتوج السكر الذي جعلته جودته مطلوبا من قبل الكثير من دول وخاصة تلك القريبة من المغرب في الضفة الاوروبية ، ولهذا يرى البعض بأن هذه المادة أثرت كثيرا في سياسة وعلاقات المغرب الأقصى الخارجية فعرفت دبلوماسيته بدبلوماسية السكر، وكان لها أثرا كبيرا في التعريف بهذا البلد وتردد إسمه في الكثير من البلدان حسب الهادي التازي، لكنها في نفس الوقت أي الزراعة لم تخل من مشاكل وخاصة الطبيعية كالجفاف والفياضانات والجراد وغيرها والتي كانت ترهق الفلاح وساكنة المنطقة في نفس الوقت.

[1]. الجبل المطل على فاس من الجهة الشمالية.

[2]. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص413 .

[3]. الإسم القديم لحومة سيدي العواد بمدينة فاس المغربية.

[4]. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص405.